تاريخ ما بين السطور
الملكة اللغز

رمضان مصطفى سليمان

الملكة اللغز

اسموها "الملكة اللغز"، ولا يزالون...

امرأة تحيا في غموض، وتحكم من خلف ستار من الأسرار الموصدة. في كل لمحة من حياتها شفيرة عصية، وفي كل موقف عباءة من الغرابة تحيط بها، كأنها ليست من بني البشر، بل طيف مرّ بأرضهم لوهلة، وترك وراءه حيرة لا تنقضي .

هي كريستينا، ملكة السويد، ابنة جوستاف أدولف العظيم، ذاك الفارس العظيم الذي حمل تاج الحرب قبل أن يحمل تاج الحكم، والذي سقط صريعًا في معركة رهيبة وهو يتقدم الصفوف في أرض الألمانيين.

كُتب على كريستينا أن ترث العرش، لكنها ورثت ما هو أعظم وأثقل :**لعنة التناقضات**. حب الأب ، و كره الأم .

لم تكن أميرة منمقة ولا فتاة ساذجة تحلم بخاتم خطبة أو بزهرة في حفل راقص، بل كانت طيفًا ملتبسًا، يتقلب بين ذكورة مستترة وحنين مؤجل لأنوثة لم تكتمل.

يتسابق علماء النفس على تحليلها كما يتسابق الأطفال على فك لعبة معقدة من ألعاب العقل. و لكن يفشل كل من فرويد بكل عقده ، و أدلر ، و يونج و غيرهما في تحليل شخصيتها من الناحية النفسية .

قال بعضهم:

ورثت عن أبيها حسمه وسيفه ، و قوته و صلابة رأيه، وعن أمها جنونها وعواطفها المختلة المتأججة .

فهل كانت ترفض أن تكون امرأة ؟ و قد خلقت امرأة و إن غاب عنها الجمال الأنثوي .

أم كانت تلعن حظها لأنها لم ترث من إليزابيث أمها رقتها وجمالها ؟ هل كان القدر ساخرًا حين نزع منها ملامح الأنوثة، ومنحها مزاجًا عكرًا وأحلامًا يلفها السواد ؟

أسئلةٌ طرحها المؤرخ تالانديه، وبقيت بلا أجوبة.

فكريستينا، منذ اللحظة الأولى، كانت لغزاً محيرا .

لكن لفك هذا اللغز، لا بد أن نعود إلى البدايات...

إلى ذلك الملك المحارب، جوستاف أدولف، سيد الميدان، الذي حمل هموم التاج والسيف في آن واحد، والذي لم يعرف طعم الراحة إلا على صهوة جواده. ينتقل من حرب إلى حرب من بولونيا إلى روسيا إلى فرنسا إلى المانيا ، و رغم التكتلات و التحالفات كان النصر حليفه .

كان محبوبًا من شعبه إلى حد التقديس و العبادة، بطلًا تتهاوى أمامه الجيوش الجرارة الجبارة ، ويحني له التاريخ هامته، ومع ذلك...

كان قلبه العاشق للجمال ينتظر شرارة أنثى كاملة الأنوثة توقظه من صقيع المعارك ، أنثى تدخل حياته .

في إحدى جلساته مع مستشاره المقرب، الأمير بارين ، ابن خالته ، قال الملك :

"يريد الشعب أن أتزوج لأمنحهم وليًا للعهد؟ فليكن، ابحث لي عن فتاة تليق بعرش السويد"!

ابتسم بارين ابتسامته الرقيقة وقال:

" مولاي، هذا أمر لا يُفرض من الشعب، إنما من القلب. أنت تختار من تحب، لا الشعب ".

ضحك جوستاف أدولف ضحكة عالية مرحة، لكنها كانت تخفي خلفها تعب المحارب الجسور، وقال:

"منذ متى كانت القلوب تختار؟! لقد وُلدنا لنتزوج من أجل السياسة، لا من أجل الحب. السياسة هى المحرك الأول لكل الملوك ، أما الزواج و الحب فمتروك للصدف ، و الهدف .

ومع ذلك... اختر لي من ترى".

أخرج بارين قائمة بأسماء الأميرات ، كان قد أعدها من قبل ، وسردها على الملك :

- "الأميرة هنريت الفرنسية" أنها يا مولاي جميلة إلى حد لا يوصف .

- "فرنسية؟! لا أطيق خيانة الفرنسيات". بعد الزواج ، و خلال وجودي خارج البلاد في معركة ، ستختار أحد فرسان الحرس ، بل سوف تبدل كل يوم واحد منهم . دعك منها .
- "الأميرة ماريا من النمسا؟"
- "رأيتها... جمال نعم و لكن بلا عقل". سبحان الله الجهل بعينه مرسوم في عقلها ، إذا كان عندها عقل ، لا تعرف أي شيء في أي شيء .
- "الأميرة إليزابيث"...
- "ابنة أختك؟ ألم تغضب مني منذ ست سنين ؟ "
- " لكنها تحبك، ترسمك من خيالها فهى فنانة مبدعة ، وتعلّق صورك في كل زاوية من القصر". و كأن قصرها متحف من متاحف الفن .

هنا توقف الزمن للحظة، وارتجف قلب الملك، هو الذي لم يعرف الارتجاف إلا في الزلازل الحربية، سأل:

" أتهواني حقا إليزابيث ؟ "! أ هى مجنونة بي إلى هذه الدرجة ؟ .

- " بل تعبدك يا مولاي عبادة... والشعب يحبها لرقتها و جمالها و علمها، كل السويد تنتظر زفافكما ".

فابتسم الملك ابتسامة النصر المظفر ، لكن هذه المرة لم تكن في ميدان قتال، بل في ميدان العاطفة ، ميدان الحب ، ميدان العشق الذي طرق باب قلبه .

قال وهو يعتدل على كرسيه:

"ادعها إلى حفل الانتصار، أريد أن أراها مرة أخرى ". أنا لم أراها منذ ست سنوات " ،

جاءت الأميرة إليزابيث، وكانت أجمل مما تخيلها جوستاف .

امرأة من ضوء و نور باهر، أنوثة طاغية تعبر أمامه كما تمر نسمة بحر فوق جبهته المجبولة بالغبار.

وانهزم جوستاف أدولف، لأول مرة في حياته... أمام امرأة ، و انتصر الحب و لهيبه .

وتقرر الزواج، ولكن أوربا لا تهدأ.

تحالف ثلاثي من فرنسا، والدنمارك، وبولونيا... وكان لا بد من القتال.

وقال الملك بشدة :

"لا زفاف قبل النصر، فليكن سيفي شاهدًا أولًا، ثم تأتي الورود بعد ذلك ".

ذهب، وانتصر انتصارا مدويا، وعاد من المعركة ليعلن موعد الزفاف المنتظر... ثم تزوج حبيبته التي سكنت قلبه .

لكن شيئًا في روح إليزابيث كان قد تغير.

صارت حزينة، مريضة، تهذي باسم زوجها في الأحلام، تبكي في السكون، وتحدث وصيفتها ماريان عن رؤى لا تراها إلا هي ، رؤى كئيبة سوداء .

كانت تسمع عظات القس إيمار المبغض للجمال ، ذاك الغراب الذي لا يذكر الجنة ولا الرجاء في حياة سعيدة ، بل ينفث الموت في الأرواح .

فعم قلب إليزابيث الحزن، وذبلت زهرتها قبل أن تثمر. و توقفت الحياة الجميلة التي تنتظرها كل أنثى .

ولكن رغم ذلك، لم يقل حب جوستاف لها، بل ازداد تعلقًا بها، حتى حينما بشره بارين بأنها حامل، صرخ من فرط السعادة، وأمر بإعلان النبأ في كل ممالك الأرض. ، بل أن يعرف الشعب كله أنه حقق انتصارا جديدا .

قال بارين له وهو ينبه إلى التقاليد :

يجب ألا نتسرع ، فالبهجة تكون حين تلد الملكة .

لكن جاءت الصدمة ، صدمة لم تكن تتوقعها الملكة إليزابيث نفسها . ولدت فتاة.

وصرخت إليزابيث في ألم:

"بنت؟! لا... خيبتُ ظن الملك ، كان يريد فتى يرث العرش من بعده "!

أما هو، جوستاف أدولف، فقال بابتسامة مشرقة:

"إنها هدية السماء... سأسميها كريستينا"!

و أمر بارين وزيره أن تقام الأفراح ، و تذبح الذبائح ابتهاجا بالمولودة .

!

و كبرت الفتاة في ربوع القصر المترامي الأطراف ، و أمامه حدائق غناء تمرح فيها الطيور بأعذب الألحان ، و تداعب الزهور بألوانها البهيجة خضرة الحدائق .

كبرت بين حنان الأب و تربيته كأنها فتى ، و كراهية الأم التي كانت تريد أن ترى مولودها فتي .

كريستينا و الحب

أوله الروائيون و رجال السنيما بقصة حياتها فعالجوها في عشرات الأعمال و الأفلام ، حاولوا الاقتراب من قصتها ، أن يفسروا ألغاز هذه الشابة العجيبة الغامضة بطريقته الخاصة ، و لكنهم لم يقتربوا من الحقيقة .

الممثلة جريتا جاربو أشهر من لعبت دورها على الشاشة ، تدخلت في صياغة الحوار ، فلما سألها النقاد عن ذلك ، قالت :

أراد كاتب السيناريو أن يصور الملكة كريستينا هاربة من دنيا النساء ، كافرة بالحب في عناد ، فترتدي ثيابهم ، و تقارعهم في ميادينهم ، و تحتسي معهم أقوى الخمور كي تسعد برؤيتهم يسقطون سكارى ، و يعترفون بتفوقها عليهم في ميدان الرجولة ، و أردت أن أقول أنها امرأة كغيرها من النساء حرمها موت أبيها وقوة أمها التي تبغضها من دفء الحنان و الحب في سنوات طفولتها و صباها الباكر ، فانطلقت حين بلغت سن الشباب تبحث عما ضاع في دهاليز المغامرات العاطفية و الآثمة بعيدا عن برودة التاج فوق رأسها ، و ثرثرة رجال السياسة و الحرب قرب مخدعها .

تبرير غريب لقصة غرام كريستينا . و لكنه تبرير فنانة كانت تحاول بدورها أن تشفي من جروح حبها الخائب ،

الملكة كريستينا لم يعرف لها حب في حياتها أبدا لسبب بسيط هو انها لم تحب أحد قط ، و إن كانت بعض المصادر أنها كنت تحب الأمير شارل .

و لدت في الثامن من ديسمبر عام 1626 ، امها المخبولة صاحت باكية حين قالوا لها أنا وضعت بنتا :

بنت ، لا أريد أن أراها ؟ أبعدوها عن فراشي ، لو وضعتموها بجانبي لخنقتها ، ماذا أقول للملك ؟ أ أقول خيبت ظنك ، و أنجبت لك بنتا ، و أنت تريد الولد ، أبعدوها ، لن أراها ، لا أريدها .

فماذا قال الملك ؟ ماذا قال أبوها جوستاف أدولف الثاني أشهر فرسان أوربا ، و هازم جيوش ست دول ، ست إمبراطوريات : بنت ، لنشكر الله على هديته ، وإني أدعو الله أن تكون بمثابة الولد لي و لشعب السويد المحبوب ، اقيموا الحفلات

في كل البلاد المملكة ، والصلوات في الكنائس ، و لعل الله جميعا أن يحفز لنا هديته العزيمة .

أ كانت تلك مأساة كريستينا ؟ ترفضها الأم بإصرار ، و يغدق عليها الأب كل ما في قلبه من حنين و حب .

لنستمع إلى ما تقوله ي في يومياتها :

أكون كاذبة لو قلت إنني أحببت أمي ، أما أبي فقد كنت لا أكف إذا لاعبني عن النظر إلى وجهه الوسيم ، المشرق كنور القمر ، و أغرق في حنان نظراته الدافئة ، كان يرفعني بين يديه ، ثم يقذف بي إلى أعلى في الهواء ، كأنني كرة ، أسبح مطمئنة إلى يديه القويتين الحانتين في انتظار سقوطي عليهما كما أسقط على حاشية من ريش النعام ، قالوا لي أن أمي رفضت لشهر كامل أن ترقدني بجانبها ، و إنها لم تقبل هذا إلا نزولا على رغبة أبي , أنها لم ترضعني كما قالت لي المربية ، بل جلبوا لي المراضع .

كان موقف الأم من ابنتها يحزن الملك العظيم ، و طالما بث شكواه إلى خالها الأمير بارين وزيره الأول :

لست أفهم سبب كراهيتها للطفلة ، لقد قلت لها ألف مرة إنني لم أرد الولد بهذه اللهفة التي تتصورها ، ثم إنني في ميعة الشباب يا بارين ، أنا في الثلاثين و هي في العشرين ، ستنجب بإرادة المولى عز وجل الصبيان و البنات ، أ لديك تفسير لهذه الكراهية ؟ قل لها شيء .

يقول له بارين :

مولاي ، لا تشغل بالك بتصرفات الملكة ابنة أختي ، لقد حذرتها مرارا من الاستماع إلى عظات القس السوداوي المزاج إيمار ، ذلك القس الذي يشبه الشيطان في عظاته ، و أعتقد أن عاطفتها نحو الأميرة كريستينا ستتغير إلى ما تحب يا مولاي بعد أن أبعد القس عنها ، بل عن القصر ، و بث سمومه في أذن الملكة .

قال جوستاف : بارين إني أخشى أن يكون للوراثة دخل في تصرفات الملكة ، أن تغدو كريستينا مثل أمها حين تكبر .

مولاي إنني من أسرة اشتهرت بالذكاء و الاتزان العاطفي ، أسرة ملء الحب كل كيان أفرادها .

من ناحية الأم أجل ، أختك لا غبار عليها ، و لكن الأب ، أبوها الأمير جان سيجموند مختار بافاريا كان مريب التصرفات ، أخشى أن تكون زوجتي اليزابيث ماري قد ورثت خبل أبيها .

و يضحك بارين ليبدد مخاوف الملك :

إنك تبالغ يا مولاي في وصف تصرفات زوج أختي الراحل ، لكن هذا لأن هويته كانت مشاركة كلابه في طعامها .

و هل تريد خبلا أكثر من هذا ؟ ثم هل نسيت أن الشائعات بعد موته بأنه مات منتحرا ؟

قال بارين في قلق :

شائعات مغرضة يا مولاي ,

إنني أحب الملكة يا بارين ، أحبها بإخلاص صادق ، و أعرف أنها تحبني ، و لكني خائف على كريستينا منها ، ماذا يحدث للطفلة إذا لقيت حاقد في ميدان القتال ؟ بارين إني خائف حقا .

ثم حدث انقلاب عجيب في تصرفات الملكة دائمة الحزن ، قالت لزوجها الملك :

جوستاف ؟ لماذا لا تريد أن اشرف على تنشئة كريستينا ؟ أريدها معي دائما ، سأنقل فراشها إلى غرفتي ، هذا إذا لم تمانع يا عزيزي ؟

سعيدا قال الملك :

أمانع ؟ أنا أمانع يا اليزابيث ماري ، طالما تمنيت هذا ، كم أود أن تبثي الحب و الحنان العاطفة لطفلتنا . .

حسنا من الآن لن يشرف عليها سواي ، إنها ابنتي ، و أنا احق برعايتها من المربيات و الوصيفات .

صاح الملك من فرط سروره :

بارين ، بارين ، أين الأمير بارين ، تعال و اسمع هذا الحب الجميل الذي يصدر من أبنة أختك .

و أقبل بارين :

مولاي

أخيرني يا بارين ، الملكة تصر على أن تكون وحدها المشرفة على تربية كريستينا ، يا إلهي الآن أذهب إلى الحرب و أنا مطمئن البال .

فجأة صرخ بارين في وجهه الملك :

ماذا تذهب إلى الحرب يا جوستاف ؟ لا كفانا حروب .

يا عزيزي لقد ضرب الأعداء عرض الحائط بمعاهدة وستفاليا ، إنهم يجتاحون أملاكنا على شواطئ الدانوب، لا مفر من أن القنهم هذه المرة درسا نهائيا و حاسما ، درسا لن ينسوه .

و صاحت الملكة متوسلة :

كلا ، كلا ، من قال إننا نريد أملاكنا على الدانوب ؟ إن بيننا و بين الدانوب مسافات شاسعة ، مالنا و الدانوب أرجوك لا تذهب ، أشعر ، أشعر .. لكن ..

و يهدئها بارين :

يا صاحبة الجلالة ، هوني عليك ، لا تدعي الأوهام تسيطر عليك ، و ..

تقاطعه الملكة في عنف :

كفى ، كفى ، يا خالي ، إن قرابتك لي لا تعطيك الحق في تحريض زوجي على الحرب .

أنا أحرض جلالة الملك عليك يا ابنة الأخت .

أ لست تحرضه على الخروج للحرب ؟ تريدني أن أفقده ، و لكني لن أقف ساكنة ، و أنا اراكم تفسدون حياتي ، لن تذهب يا حبيبي إلى الحرب ، قل هذا ، أرجوك ، أتوسل إليك .

و لكن جوستاف الفارس الجوال يخرج للحرب من جديد ، يخرج هذه المرة و لا يعود إلا جثة هامدة ، قتل وهو على صهوة جواده في ميدان القتال ، و متى ؟ بعد أن حقق النصر على الجيشين النمساوي و الروسي ، وتوقع الشعب السويدي أن تجلس الملكة اليزابيث ماري كارولينا على العرش وصية على ابنتها كريستينا .

قالت ف جزع و حزن :

ماذا ؟ لم ينصبني الملك وصية على ابنتي ، لماذا ؟

يا صاحبة الجلالة ، لقد عدل حلالته في الوصية ؟ قبل خروجه إلى القتال ، جعل وصاية العرش لخمسة من أمراء المملكة .

و أنا لقد كان يحبني ، و كنت أحبه ، بل أما ما زلت أحبه رغم هذا لماذا ؟

لست أدري يا صاحبة الجلالة .

و من هؤلاء الخمسة ؟

أنت من بينهم يا خالي ؟

أجل ، أنا واحد منهم ، و لكنه خص2 الأمير أوكسنترين برئاسة لجنة الوصاية .

أوكسنترين الصارم الذي لا يبتسم أبدا .

مولاتي ، الأميرة في حاجة إلى من يعدها لتجلس على العرش ، هذه مهمة لا يصلح لها إلا رجل مثله ، لا أحد يجهل يا مولاتي أنه هو الذي أعد جلالة الملك الراحل للحكم بعد موت أبيه .

و عادت الملك إلى عزلتها ، إلى حياتها الهذائية ، كست غرف القصر كلها بالسواد ، و أصرت على أن تعلق على جدران غرفة نومها و غرفة نوم كريستينا عشرات من صور الزوج المحبوب في اطارات داكنة مجللة بالسواد .

و يقول مؤرخها تالانديه :

كان كل من في القصر يسمع نحيبها و عويلها ليل نهار ، أغلقت نوافذ جناحها ، و طردت كل وصيفتها و خدمها ، لن تبقى إلا على خادمة واحدة مخبولة مثلها ، تبكي و تعول كسيدتها ، تقضي جزءا كبيرا من النهار في نوم مضطرب تتخلله الصحوات المفاجئة الصارخة ، فإذا جاء الليل أشعلت الشموع ، و شرعت في البكاء و النحيب أمام صور الزوج الفقيد ، و أهملت كريستينا رغم اصرارها على أن ترتدي مثلها ثياب الحداد .

طفولة مروعة : تقول عنها كريستينا :

رغم اهمالها لشأني فقد كنت إذا اخبرتها خادمتها اللعينة " أيزولدا " بأنني ألهو و امرح في حديقة القصر مع أطفال الأمراء و الأميرات ، أسرعت لتأخذني إلى غرفتها السوداء ، و تأمرني بالبكاء و النحيب أمام صورة أبي ، و يوم سقطت

على فراشي الصورة الكبيرة المعلقة فوقه ، و كسرت ترقوتي ، و أوشكت أن تقتلني لم تنشغل أمي بما حدث لي .

و حين قال لها الطبيب :

يا صاحبة الجلالة ، لا يحسن نقل الأميرة كريستينا من غرفتها حتى يلتئم كسر الترقوة .

قالت : بل يجب أن تنقل إلى هنا ، ماذا يقول الناس إذا علموا أنها لا تركع أمام صورة أبيها و تبكيه باحر الدموع ؟

مولاتي ، لو تحركت الأميرة من فراشها ، فلن يلتئم الكسر بسهولة ، بل قد يؤدي إلى لون من الالتواء في الكتف .

هراء ، إنكم تبالغون ، سأنقلها اليوم إلى غرفتي .

و نقلوا الصغيرة إلى غرفة نوم الأم ، و لم يلتئم الكسر كما كان يجب أن يلتئم ، و ظل عيب الكتب يؤرق حياة الملكة إلى آخر يوم في حياتها .

و ضاق مجلس الوصايا بالأم المخبولة ، و تدخل الأمير أوكسنترين رئيس المجلس في حزم اشتهر له ، أمر وصفاء القصر بأسلوب صارم :

يخصص الجناح الشرقي بحديقته و أفنيته لصاحب الجلالة الملكة كريستينا و لا يسمح للملكة الأم برؤية ابنتها إلا بحضوري شخصيا .

و احبت الصغيرة الأمير القائم على تنفيذ وصية أبيها بألا يكون لأمها رأي في تربيتها و تنشئتها ، صار أمرها كله في يد الأمير أوكسنترين ، كان شديد الحزم معي و لم أره أبدا مبتسما ، كئيب الوجه ، و لكنه كان يعرف ماذا تريد طفلة في مثل سني ، و ماذا تشتهي ، لم يحرمني من اللعب مع الصغار أمثالي ، و كان يختار لي ثيابي الزاهية الأنيقة بنفسه ، و يضع الجدول اليومي لحياتي ، و يشرف على تنفيذه رغم أنه كان في الخامسة و الستين من عمره ، كان أول من يعلن عن حضوره في القاعة المجاورة لمخدعي في الثامنة من صباح كل يوم ، و يقرأ لي جدول اليوم :

درس اللغات الأجنبية من التاسعة حتى العاشرة ، من العاشرة و الربع إلى الثانية عشرة درس الحساب ، و من الواحد حتى الثانية درس اللغات مرة اخرى ، الغداء في الثانية و النصف ، من الخامسة حتى السابعة لعب في حديقة القصر ، من الساعة حتى التاسعة دروس التاريخ و الفلسفة .

لا غرو أن صارت كريستينا أكثر ملكات أوربا ثقافة ، كانت تتقن ست لغات اجنبية ، و تناقش أشهر الفلاسفة في عصرها ديكارت و باسكال و جاسندي ، تناقشهم دون تردد ، أو سقط في الكلام .

كنت أعمل أربع عشرة ساعة في اليوم ، أعتقد إنني ورثت جد أبي على العمل ، ما إن بلغت الثالثة عشر حتى أصر الأركسنترين على أن اشهد كل جلسات مجلس الوزراء ، و لسات مستشاري المملكة ، كان يطلب إلي في اصرار أن ابدي راي و أناقش ما يعرض أمامي من أفكار ، و كان يحل إلي كثيرا من المشكلات السياسية الداخلية و الخارجية لأدون التقارير عنها ، و يصر على ان اسلمه التقارير في اليوم التالي .

و يقول :

لقد كان صاحب الجلالة الملك الراحل والدكم يقول لي :

إتي لم أنجب بنتا يا اكسنترين ، لقد أنجبت ملكا ، مهمتك أن تذكرها بهذا في كل وقت ، يا صاحبة الجلالة لقد طلبت إليك أن تدوني رأيك في مسألة انفصال بورمورانيا عن السويد ، و حتى الآن لم يصل تقريرك إلى مجلس المستشارين ، لا تنامي الليلة قبل أن تنتهي منه .

و لم تتذمر كانت سعيدة ، كل شيء رائع طالما لا يطلب إليها أن تتعلم ما تتعلمه الفتيات عادة ، لا تطريز ، لا موسيقى ـ لا دروس في تربية الأطفال ، الرجال لا يتعبون ، هكذا كان يقول لها أوكسنترين العجوز ، كانت على استعداد أن قوم بعمل عشر رجال شريطة أن تعفى من مجالس النساء .

أ كانت تريد أن تغدو رجلا ؟

لم تتحقق لها هذه الأمنية ، و حين تمكنت أن تغدو امرأة ، كانت الفرصة قد ولت من زمن بعيد .

ذات صباح جاء الأمير أوكسنترين في موعده كعادته ، و كان معه الأمير بارين خال أمي ، واقفا أمامي مشدوهين في ذهول ، قال بارين :

ما هذا يا صاحبة الجلالة ، إنك ترتدين ثياب الفتيان ـ الحذاء الجلي الطويل ، و السروال الشيق و القميص ، و قبعة الرجال و السيف و الخنجر .

قلت له : ألا تراني أشبه أبي في هذه الثياب يا أمير بارين ؟

يا صاحبة الجلالة ، لقد كان صاحب الجلالة الملك ، كان رجلا ، و لكنك

ماذا تقول أنت يا أوكسنترين ؟

في ابتسامة قال الوصي :

يا صاحبة الجلالة ، إنك الآن اشبه الناس بأبيك الراحل ، من الذي أمدك بهذه الثياب ؟ من صنعها ؟

قالت :

خياط القصر ، أعطيته صورة أبي ، وهو أمير ، و طلبت منه أن يصنع لي ثيابا كثياب أبي التي في الصورة .

لقد أبدع في عمله ، كان يجب أن يخبرني على أي حال ، يا صاحبة الجلالة ، هل تريدين حقا ارتداء هذه الثياب ؟ أ هي لتسلية صديقاتك و أصدقائك ؟

أمير أوكسنترين ، إني أعتزم ألا أرتدي ثياب النساء أبدا بعد اليوم ، هل تعترض على هذا ؟

يا صاحبة الجلالة ، لقد صدق والدك الراحل حين قال لي :

إنني لم أنجب بنتا يا أوكسنترين ، لقد أنجبت ملكا ، إنني موافق يا صاحبة الجلالة على كل ما تفعلين.

اعترض بارين :

أمير أوكسنترين .

قال الوصي في حزم :

تلك إرادة صاحبة الجلالة الملكة كريستينا ملكة السويد يا أمير بارين .

منذ تلك اللحظة تأرجحت كريستينا بين عالمين : علم الرجال و عالم النساء .

لم تصبح رجلا ، و لم تصبح امرأة ايضا .

نساء في ثياب الرجال

نسوة ثلاث كلهن دخلن سجل التاريخ في ثياب الرجال ، ماكيدا ملكة الحبشة و اليمن ، و أصلها يمني ، و قد اعتقدت اليهودية ، جورج صاند الكاتبة الفرنسية الشهيرة ، و اسمها الحقيقي (لأمانتين أورور لوسيل دوبين) ، و كريستينا ملكة السويد .

تابعنا معها حياتها و هي اميرة يعدها الوصي على العرش الأمر أوكسنترين لتجلس حين تبلغ السن القانونية على عرش أبيها الراحل " جوستاف أدولف الثاني "

أوكسنترين العجوز هو الذي تعهد بها ، وكان وليا للعهد تحت الوصاية ، قد نجح مع البنت كما نجح مع الأب ، مع فارق كبير .

يقول مؤرخها :

صنع منها أوكسنترين ملكة ، و لكنه جردها من أنوثتها ، كانت أشبه بالرجال في ملابسها ، بل في تعاملها مع الكل .

لم يحسن أوكسنترين تحليل شخصية كريستينا أيضا ، فماذا كان يستطيع الأمير العوز أن يفعل في تأثير ما يسميه علماء الهرمونات في أيامنا : هرمون الذكورة " هي نفسها تعترف في يومياتها قائلة :

لم أعرف عاطفة الحب للرجال قط ، و إذا كنت قد قربت إلى جلساتي الخاصة رجالا أمثال دوهنا أو سنتنلي أو مرندالنتشي ، فما كان ذلك إلا كما يقرب الرجل صديقه الرجل ، لا حب ، و لا لهفة ، لا شوق ، البعاد عنهم ، مجرد صديقي يأتي و يذهب ، و لا يترك ذهابه لوعة و لا حسرة .

و بلغت سن الرشد التي تؤهلها للجلوس على الأريكة .

توجوها في كاتدرائية ستوكهولم في العشرين من أكتوبر عام 1650 .

و ندع تالانديه يصفها وهي تقدم نحو العرش و على شفتيها ابتسامة غامضة

يقول :

كانت الدهشة مرسومة بوضوح على وجه سفراء ووزراء الدول الأجنبية الذين جاءوا ليشهدوا حفل التتويج ، و هم يرونها تتقدم في ثياب الفرسان نحو العرش المنصوب في قصر قاعة الكاتدرائية ، حاول الأمير بارين أن يقنعها قبل مغادرة إلى الحفل بارتداء الثياب النسوية ، و لكنه أصرت على ألا تخلع الثياب التي ألفتها ستة أعوم ، الشيء الوحيد الذي قبلت أن تخلعه هو حزام السيف و الخنجر ، حتى إذا خلعته كارهة و هي تقول لخال أمها الأمير بارين :

لو كان الأمير أوكسنترين على قيد الحياة لما وافقك على هذا يا أمير بارين ، أنت تعرف أن لي أعداء حاولوا مرارا اغتيالي ، كيف أدافع عن نفسي إذا حاولوا ذلك مرة في الكاتدرائية ؟

قال بارين هامسا :

مولاتي ، أنت الآن محبوبة الشعب ، و هذا يوم انتصارك ، و فرقة كالة من فرق الجيش تحرس كل مداخل الكاتدرائية ، الفرقة التي تحمل أسم والدك الراحل العظيم جوستاف أدولف .

كان وجهها ممتقعا و هي تسير بخطوات الفرسان جريئة واثقة من نفسها تنظر باحتقار إلى زوجات وزرائها ، و أمراء المملكة في ثيابهن الزاهية ، كانت تكره النساء ـ كل النساء ، و لم تكن تحب الرجال ، بل انت تكرهم ، و حين ثبتت إحدى السيدات نظراتها إلى أنفها الكبير و تبسمت ساخرة ، توقفت أمامها ، و قالت في جفاء : أجل يا أمبرة أنه أنف كبير ، لأنه أنف الملك .

و لكن الشعب السويدي كان سعيدا جدا الفقراء على وجه العموم ، فهم الذين كانوا يمثلون كتلة الشعب الكبرى ، الجنود و الفلاحون و الحرفيون و صغار التجار و الطلاب .

لم تكن هناك طبقة وسطى ، البرجوازية السويدية لم تشكل طبقة متميزة إلا بعد عهد كريستينا .

كانت الطبقة العليا تضم كبار التجار و الأشراف و الأمراء و قادة الجيش ، و كلهم غارقون في الفساد إلى اذانهم ، ثرواتهم تثير في نفوس الفقراء و لفلاحين و الحرفيين بغضاء كاملة نفست عنها في إناء الحقد الأسود في ثورين خلال عهد الوصايا ، و لكن هذا كله بدأ يتغير تحت حكم كريستينا ، لم يجسر أحد من وزرائها أصحاب الثروات و الامنيات على معارضة قوانينها التي صرت متداركة :

نأمر بإنشاء جامعة في ستوكهولم يستقدم لها العلماء و المفكرين من كل بلاد أوربا دون تميز .

و كان باسكال و ديكارت من أوائل من درسوا الفلسفة في الجامعة الوليدة .

يحظر حظرا باتا الحجز على مواشي الفلاحين ، و أدوات الحرفيين لقاء ديونهم .

يحدد أجر العامل في الحقول بعشرين تالر في الشهر ، و تعرض شكايات العمال و الحرفيين من أصحاب العمل على محكمة المنطقة ، كما يعرض استئناف الحكم الصادر من محكمة المنطقة عل المحكمة العليا باستوكولهم .

تشكل لجان في كل القرى للنظر في اعفاء الفلاحين من كل الضرائب المتأخرة عليهم على مدى السنوات الخمس الماضية .

تقبل استقالة الأمير أرفاد بارين رئيس الوزراء بسبب رفضه اقرار صلح وستلفاليا ، و يعين بدلا منه السيد سومير بمهمة محددة و هى الابتعاد بالشعب السويدي عن المشاكل الأوربية .

تشكل لجنة لدراسة إمكان فنح مدرسة ابتدائية مجانية في كل قرية من قرى السويد .

السيد وزير المعارف مكلف بإحياء التراث السويدي و تهيئة مكتبات عامة في المدن الكبرى بالمملكة ,

و لم يجسر أحد على معارضتها ، حين عزلت الأمير أرفاد بارين خال أمها من رئاسة الوزراء ، ووضعت مكانه الأمير سوفير اللغوي الأشهر و داعية السلام ، جاءها ابن عمها الأمر شارلي :

يا صاحبة الجلالة ، إنني لا أناقش قرارك في أبعاد خالنا الأمير بارين ، و لكني أطمع في أن تشمليه بالعطف و تعينه مستشارا لمجلسك الخاص .

قالت كريستينا :

يا عزيزي شارل ، إنك الوحيد في أسرتنا هذه المخبولة الذي يدرك المخاطر التي تتعرض لها السويد بسياسة الحرب التي يرفع لواءها الأمير بارين ، إنه لا يفتأ يكرر في خطبه عن السويد أن الملك العظيم جوستاف أدولف لن تتنازل عن شبر احد من املاكها في أوروبا ، و يظن أنه يرضيني بالإشادة بأبي ، و لكنه

يعرف أنه لم يكن هناك إلا جوستاف أدولف واحد ـ و ان لا أحد غيره يستطيع أن يحقق المعجزات التي حققها في ميادين القتال في أوربا .

إني أنتظر أوامرك يا صاحبة الجلالة لأخرج على راس الجيش لأعيد أمجاد السويد في الأرض الأوربية .

ضحكت كريستينا و قالت ساخرة :

لتعود محولا على محفة كما حدث لأبي ، لا يا عزيزي شارل ، لا حرب للشعب السويدي بعد الآن ، ثم إنني أبقيك لما هو أهم من الحرب القتال .

ماذا كانت تعني بهذا ،

يقول تالاموديه :

كان الأمير شارلي هو الرجل الوحيد الذي شعرت نحوه كريستينا بلون من الحب الغامض ، و حين طالبها الشعب بالزواج لتعطيه وليا للعهد كان الأمر شارلي هو مرشح الجميع ليقوم بدور زوج الملكة ، أغلب الظن أنها فكرت جديا في الزواج من شارلي ، فهي تقل في يومياتها :

لا أحد يفهم أهدافي غير شارلي ، المحزن أنه شديد الخجل ، و لعله الوحيد الذي ينظر إلى أردية الفتيان الخاصة بي التي تملأ صالونات القصر دون أن يزهر على شفتيه ابتسامة السخرية الغامضة التي أراها على شفاه سواه من أفراد الأسرة ، ثم قيل أنه كتب قصيدة يعرب فيها عن غرامه بي ، لم أقرأها ، و لم يجسر هو أن يعرضها علي ، لو خرج من صمته ، و قال لي كلمة حب واحدة ، أعلنت خطبتي على الفور.

أ كان هذا هو الحب الوحيد الصادق الذي تسلل إلى قلب المرأة المسترجلة ، فماذا عن أحداث علاقاتها المشبوهة بأمثال توت و جوهنا ، بل ماذا عن فضيحتها المدوية مع الأمير مونالدتشي الذي فقد حياته في احدى ثوراتها النفسية الهستيرية ، التي كانت تلازمها إذا غضبت .

في مايو 1653 ، أي بعد ثلاث سنوات و نصف السنة ، جاءها رئيس الوزراء الفيلسوف اللغوي سافير :

مولاتي ، أطمع في أن تتكرمي بدراسة هذه التقارير التي وصلتني على مدى عام كامل في شأن خاص بمولاتي .

كانت كريستينا تحترمه و توقره ، فقالت له في ود صادق :

تقارير خاص بي أنا ؟ و لماذا لم تعرضها علي يا سيد سوميز أولا بالأول ، لاذا أبقيتها عندك عاما كاملا ؟

مولاتي تجدين معها تقريرا دونته عن رأيي في كل ما جاء بها .

قلبت كريستينا في الأوراق ، ثم قالت ضاحكة :

ما هذا ، إنها عروض للزواج من ملوك أوربا و أمرائها ؟

أجل يا صاحبة الجلالة ، و ترين رأيي في كل مرشح منهم في ذيل التقرير

و لكني لا يا عزيزي سوميز لا أنوي أن أتزوج ، الآن على الأقل .

سترين يا مولاتي إنني أرشح في النهاية الأمير شارل .

تظن إني أحبه إذن ؟

آن الأوان يا مولاتي أن تسعدي الشعب بولي العهد .

بل لقد آن الأوان يا سيد سوميز لشيء آخر أعم بكثير من زواج كريستينا ملكة السويد .

في دهشة قال سوميز :

إنك يا مولاتي تثيرين قلقي .

أعتقد أنك لم تأتني بهذه التقرير إلا بع أن أدركت ، و لا أرى يف إنني أريد أن أنفض يدي من هذا الأر كله ، أريد أن أتنازل عن العرش .

في ذهول قال سوميز :

مولاتي ، تتنازلين عن العرش .

يا إلهي ، أجلس يا سيد سوميز ، فأنت توشك أن تسقط على الأرض ، أجلس هزتك الفكرة إلى خذا الحد ؟ و أنا التي ظننت أنك أدركن ما يجول في ذهني .

مولاتي ، لا أدري ما أقول ن أرجوك با مولاتي ، لا توجهي هذه الضربة القاسية إلى شعبك .

حسنا دعنا ننسى الأمرين معا : الزواج و التنازل عن العرش .

نسيت فكرة الزواج

من العرش إلى المنفى الروحي:

الملكة كريستينا ومسيرة التحول ما بعد التنازل

بعد تنازلها الطوعي عن عرش السويد في عام 1654، دخلت الملكة كريستينا مرحلة جديدة من حياتها اتسمت بالتقلبات الوجودية والتجوال الدائم والتحولات الفكرية والدينية، وكأنها اختارت أن تستبدل التاج بسؤال الذات، والسلطة المؤسسية برحلة بحث داخلي تتجاوز الحدود الجغرافية واللاهوتية والسياسية. لم يكن قرارها بالتنحي مجرد خطوة سياسية، بل كان إيذانًا بانفصال رمزي عن الهوية الاسكندنافية البروتستانتية، وتمرّدًا على القيود الموروثة التي كبّلت الفرد، حتى في أسمى مواقع السلطة.

اختارت كريستينا أن تتوجه إلى قلب العالم الكاثوليكي، حيث أعلنت اعتناقها للمذهب الكاثوليكي بعد فترة من التأمل والصراع الداخلي، في خطوة أحدثت صدمة عميقة في أوساط النخبة السياسية والدينية الأوروبية، إذ رأى فيها الكثيرون خيانة لقيم الإصلاح اللوثري ومؤسساته، بينما اعتبرها آخرون قطيعة جريئة مع تاريخها من أجل خلاص روحها. وقد حملت هذه الخطوة بُعدًا وجوديًا لم يكن مألوفًا في سلوك الملوك؛ إذ لم يكن اعتناقها للكاثوليكية مجرد انتماء طقوسي، بل محاولة لإعادة تشييد ذاتها على أسس جديدة.

استقرت بداية في بروكسل، ثم تابعت رحلتها نحو روما التي دخلتها عام 1655 وسط استقبال احتفالي رسمي وشعبي، حيث قُدّمت بوصفها الملكة التي "تنازلت عن العرش من أجل الإيمان"، ما منحها هالة روحية ومكانة رمزية خاصة في بلاط البابا ألكسندر السابع. غير أن هذه المكانة لم تُترجم إلى نفوذ سياسي حقيقي، فظلت كريستينا محاطة بالمجد الاسمي أكثر من امتلاكها أدوات السلطة الفعلية.

عاشت بين روما ومدن إيطالية أخرى مثل بيزا ونابولي، محافظة على نمط حياة أرستقراطي أنيق، ومحاطة بدوائر من الأدباء والفنانين والفلاسفة والموسيقيين، إذ سعت إلى إعادة تشكيل صورتها كراعية للفنون وراعية للفكر الحر، محاولةً أن تخلق لنفسها هوية ثقافية تتجاوز الانتماء القومي والديني. وقد كان لهذه الرعاية أثرٌ في ازدهار بعض الأوساط الثقافية الإيطالية في عصرها، وعبّرت عن شخصية كريستينا بوصفها مثقفة تتوق إلى إضفاء المعنى على وجودها عبر الجمال والمعرفة.

رغم محاولاتها المتكررة للعودة إلى الساحة السياسية، سواء عبر تطلّعها إلى اعتلاء عرش نابولي أو من خلال محاولات للعب أدوار في النزاعات الأوروبية الكبرى، فإن تلك المساعي قُوبلت بالرفض أو التجاهل من قبل القوى العظمى، التي نظرت إلى كريستينا كحالة استثنائية ولكن غير عملية سياسيًا. ومع ذلك، حافظت

على علاقات وطيدة مع الكرسي الرسولي، وكانت لها مساهمات فكرية وثقافية في دوائر الحوار الديني والفني، مما جعلها شخصية لامعة في الحوارات بين العقائد، لا بوصفها لاهوتية، بل كمثقفة منفتحة على الأسئلة الكبرى للوجود والمعنى.

توفيت في روما عام 1689، ودُفنت في كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان، في لفتة نادرة، إذ إنها من القلة غير البابويين الذين نالوا هذا الشرف. لقد مثّلت نهايتها تتويجًا لمسيرة فريدة لا تُختزل في سجل ملكي تقليدي، بل تُقرأ بوصفها سيرة امرأة اخترقت جدران الهوية السياسية والدينية والاجتماعية، وانطلقت في عبور وجودي نحو الذات الحرة، المتأرجحة بين الإيمان والفكر، وبين المجد القديم والاغتراب الحديث.

إن حياة كريستينا ما بعد العرش تُعد نموذجًا لفردٍ تمرد على قوالب زمانه، واختار أن يكون مشروعًا دائمًا لإعادة التكوين، من ملكة محكومة بالبروتوكولات إلى امرأة تسكن هامش السلطة، ولكنها تؤثّر في عمقها، امرأة تقف في مفترق الطرق بين التاريخ والأسطورة، وبين الخضوع والاختيار الحر، في سيرة تظل مفتوحة على تأويلات متعددة بقدر تعدد وجوهها وهوياتها الممكنة.